المبحث السادس

أزلية المسيح عليه السلام

سبق أن ناقشت قضية الاعتقاد بأن المسيح هو الخالق، وكان مرجعي في ذلك مصادر ومراجع مسيحية. وكانت نتيجة ذلك أن المسيح ليس هو الخالق، وإنما هو مخلوق خلقه الله؛ ويعني أنه كان هناك وقت لم يكن فيه المسيح موجودا. إلا أنه رغم كل هذا بقي المسيحيون ينسبون إلى المسيح صفة الأزلية. لذا لا بد من توضيح هذه.

إن أقوى دليل عندهم على أزلية المسيح هو قول المسيح: (قَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: «الْحَقَّ الْحَقَّ أَقُولُ لَكُمْ: قَبْلَ أَنْ يَكُونَ إِبْرَاهِيمُ أَنَا كَائِنٌ)[1]. وفي تفسيرها يقول المسيحيون: هذه العبارات تعد من أقوى الكلمات التي نطق بها يسوع. وعندما قال الرب: "إنني كائن من قبل أن يكون إبراهيم" أي من قبل أن يولد إبراهيم، فإنه بذلك يعلن لاهوته (طبيعته الإلهية) بلا إنكار"[2]. إلا أن هذا التفسير يقوِّل النص ما لم يقله، فليس هناك نص يقول فيه المسيح: أنا لي لاهوت وناسوت، ومن ثمة، فالقول بأن المسيح أعلن ألوهيته، لا يخوله لهم هذا النص مطلقا.

وفسر القس إبراهيم سعيد النص قائلا: "فهو لم يقل قبل أن يكون إبراهيم أنا كنت، وإنما قال كائن، فليس في سجل الزمن وقت لم يكن فيه المسيح كائنا. إن الوقت الذي وجد فيه المسيح، لم يولد بعد في أحضان الزمن. فالمسيح هو رب الزمن لأنه أزلي أبدي"[3].

ويكفي للرد على هذا التفسير ما قاله البابا شنودة الذي رغم محاولته ربط النص بلاهوت المسيح، إلا أنه جعل ذلك مرتبطا بزمن، يقول: "قبل أن يكون إبراهيم أنا كائن، ومعنى هذا أن له وجودا وكيانا قبل مولده بالجسد بآلاف السنيين، قبل أبينا إبراهيم، وقد فهم من هذا أنه يتحدث عن لاهوته"[4]. فشنودة اعتبر وجود المسيح بآلاف السنيين قبل إبراهيم، وهذا يفهم منه أنه له بداية، هذا يخالف قول إبراهيم سعيد، الذي ذكر في تفسيره تشبثه بلفظة أكون لأنها أدق تعبيرا عنده، إلا أن هناك ترجمات لا توجد فيها هذه العبارة أذكر منها:

- ترجمة 1591: "الحق الحق أقول لكم قبل أن يكون ابراهيم".
- ترجمة1671: ...(إنني أنا قبل أن يكون ابراهيم.

---

(1) يوحنا58/8

(2) "التفسير التطبيقي للكتاب المقدس"، ص: 2203 -

(3) شرح بشارة يوحنا"، إبراهيم سعيد، ص: 377 -

(4) "لاهوت المسيح"، شنودة، ص: 39

- ترجمة رجارد واطس: ....(إنني قبل أن يكون ابراهيم).

فلفظة "أنا كائن" التي بنى عليها إبراهيم سعيد تفسيره محذوفة من بعض الترجمات، مما يعني أنه ليست لها الأهمية في النص، فلا شك أن للنص مفهوما آخر فما هو هذا المفهوم؟

يفهم من النص أنه كان في علم الله الأزلي، أنه سيخلق المسيح. وليس أن المسيح هو الله الأزلي. وأثبت هنا نصا مهما يفهم منه هذا المعنى. يقول مينا مخائيل تحت عنوان "علم الله وحكمته": "بما أن الله سبحانه وتعالى موجود في كل مكان، وأنه يملأ الأرض والسماء، وهو كامل وغير متغير ولا محدود في جوهره، فيستلزم أنه ذو علم غير محدود ولا متغير أيضا...غير أن علم الله ليس اكتسابا بل ذاتيا طبيعيا، ولم يحصل عليه بالبحث والتفتيش، وليس معرضا للزيادة والنقص، لأن كل الأشياء التي حدثت وسوف تحدث إلى ما لا نهاية ، هي موضوعة أمام عينه من الأزل"[1].

هذا القول يؤكد أن كل الأشياء سواء التي حدثت أو التي ستحدث موضوعة أمام عين الله منذ الأزل، فوجود المسيح بناء على نص مخائيل، كان في علم الله منذ الأزل، وهنا يطرح السؤال لماذا لا يكون المسيح هو نفسه الله الذي يعرف ما سيحدث؟ سؤال جد مهم لأنه المسيحيين يعتقدون بألوهية المسيح.

والإجابة عنه هذا السؤال هي :

- إن المسيح لا يعلم الغيب، مثل جهله بوقت الساعة وعدم علمه بوجود الثمار على شجرة التين.
- إن الله لا يتغير وليس معرضا للزيادة والنقصان، أما المسيح فبشر متغير. جاء في لوقا: (أَمَّا الصَّبِيُّ فَكَانَ يَنْمُو وَيَتَقَوَّى بِالرُّوحِ، وَكَانَ فِي الْبَرَارِي إِلَى يَوْمِ ظُهُورِهِ لإِسْرَائِيلَ)[2].
- الله حي لا يموت، أما المسيح فقد مات وعلق على خشبة حسب اعتقادهم.

وهذا ما يجعل قول المسيح: إنني قبل أن يكون إبراهيم، مقصوده أنه كان في علم الله الأزلي أن المسيح سيخلق، وليس المقصود أن المسيح هو الله الأزلي.

ومن النصوص على أزلية المسيح عندهم ما ورد في سفر الأمثال: (الرَّبُّ قَنَانِي أَوَّلَ طَرِيقِهِ مِنْ قَبْلِ أَعْمَالِهِ مُنْذُ الْقِدَمِ. 23مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ مُنْذُ الْبَدْءِ مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ)[1].

"(1) علم اللاهوت"، ميخائيل مينا مدير كلية اللاهوت بحلوان، مطبعة الأمانة مصر، ط4، 1948، ص: 140 .

(2) لوقا1/80، وقد يردون على النص أنه خاص بالناسوت، لكن لا يستقيم لهم هذا لاعتقادهم أن المسيح هو الله المتجسد

يقول أنطونيوس حنّا لحدو: "الترجمة السبعينية ترجمت كلمة "قناني" العبرية إلى خلقني والفعل العبري لكلمة قناني קנני هو"קָנָה "(كَنَا) يفسر بأن الشخص اقتنى شيئا، وتأتي بمعنى نال، استمسك، امتلك (حسب يحزقال قوجمان)[2]. ثم يضيف: "والقديس أثناسيوس الرسولي أثبت لأريوس أن الأصل العبري يأتي بمعنى الولادة وكأن المعنى الرب ولدني. فولادة الابن من الآب أزلية هو نور من نور، إله حق من إله حق"[3].

ما يسجل على هذا القول هو أن صاحبه لم يكن أمينا في نقله عن قوجمان، فقد اقتصر على ذكر ثلاث معان، وبالرجوع إلى المعجم وجدت معاني أخرى تغاضى الكاتب عن ذكرها وهي كما يأتي:

"קָנָה: اشترى، ابتاع، حصل، نال، أحرز، اكتسب، خلق، وضع اليد على، استمسك، حاز على حق، امتلك"[4]. وأهم معنى هو خلق. ولعل، اهماله، له ما يبرره، حتى لا يقال "الرب خلقني أول طريقه". والدليل هو استرساله في القول أن أثناسيوس أثبت لأريوس أن الأصل العبري هو الولادة، لكن هذا أيضا لا يسلم له به، فلا يصح القول بأن الله ولد المسيح نظرا لقولهم بالتجسد وليس الولادة، وقوله "إله حق من إله حق" هو الفيصل، فمن غير المقبول أن يقبلوا بأنه إله حق ولد إلها حقا.

والجملة: "الرب قناني أول طريقه" تعني: "أن الآب يقتني حكمة أزلية. ومن هنا يتضح التمايز بين الأقانيم فالآب يقتني والابن هو المقتنى"[5]. وهذا لا يصح، فلا يمكن القول أن الله كان بدون حكمة ثم اقتناها. وهناك اختلاف حول "أول طرقه"، فيعقوب ملطي اعتبر ذلك دليل التجسد، يقول: "لا نتعثر من القول":أول طرقه"، فبالتجسد الإلهي احتل الأقنوم المتجسد موضع آدم، فكما بسقوط آدم فسدت الطبيعة البشرية، هكذا بنصرة آدم الجديد وبره صارت النصرة والبرّ للبشرية"[6]. وهذا تفسير بعيد عن الفهم ولا يمت للنص بصلة لعدم ادراك المفسر لمعنى النص، ولعل الأمر نفسه يعاني منه أنطونيوس فكري الذي يقول عن عبارة "أول طرقه": " أول

---

(1) سفر الأمثال8/22-23

(2) "إثبات عقيدة لاهوت المسيح"، لحدو، ص: 19

(3) نفسه

(4) "יחזקאל קוגמן، מילון עברי – ערבי"، ص: 821

(5) "إثبات عقيدة لاهوت المسيح"، لحدو، ص: 19-20

(6) http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/22-Sefr-El-Amthal/Tafseer-Sefr-El-Amthal__01-Chapter-07.html

طريقه =الله لا يبدأ أي طريق أو أي عمل من أعماله إلا بالحكمة"[1]. هنا العبارة بعيدة عن القول بالتجسد كما ذهب إلى ذلك ملطي.

ثلاثة أراء حول نص واحد من غير اتفاق؛ فهناك من فهم العبارة أنها تعني "اقتناء الآب الابن"، والنص لا يسمح بذلك، وإنما هو تعسف في تفسيره، وبعيدا عن هذا فسرت العبارة بأنها خاصة بالتجسد، والرأي الثالث خصها ببدء الله لأعماله بالحكمة. واختلافهم هذا راجع إلى تحريف النص عن معناه الذي يتحدث عنه.

وعن تفسير قوله: (مُنْذُ الأَزَلِ مُسِحْتُ مُنْذُ الْبَدْءِ مُنْذُ أَوَائِلِ الأَرْضِ)، يقول أنطونيوس فكري: "منذ الأزل مسحت= كلمة مسحت تعني ممسوح بالزيت ليكرس لعمل معين، كما كانوا يمسحون الملوك ورؤساء الكهنة. وقد تعني كلمة مسحت، أن أقنوم الحكمة قد تخصص أو تعين لعمل الخلقة (يو1:1-3). ولكن هذه تشير لعمل المسيح الفدائي. فالابن تحدد له عمل الفداء منذ الأزل داخل المشورة الثالوثية. فالمسيح مُسِحَ أي تحدد له دور وعمل الفداء منذ الأزل"[2]. المفسر هنا يحاول ربط النص بالمسيح رغم أن النص لا يحتمل ذلك، فالسياق لا يثبت أن النص فيه إشارة إلى الفداء.

أما يعقوب ملطي في تفسيره فلا يرى أن النص يتعلق بالفداء أو فعل الخلق وهذا نصه: "يؤكد الحكمة الإلهي أنه كان موجودًا قبل الأمور الآتية:

- كل الخليقة.
- وجود الأرض.
- أعماق ينابيع المياه.
- تأسيس الجبال والتلال.
- الأرض وأعفار المسكونة.
- السماء والسحب.
- قوانين الطبيعة"[3].

---

(1) http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/22-Sefr-El-Amthal/Tafseer-Sefr-El-Amthal__01-Chapter-08.html

(2) http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Antonious-Fekry/22-Sefr-El-Amthal/Tafseer-Sefr-El-Amthal__01-Chapter-08.html

(3) http://st-takla.org/pub_Bible-Interpretations/Holy-Bible-Tafsir-01-Old-Testament/Father-Tadros-Yacoub-Malaty/22-Sefr-El-Amthal/Tafseer-Sefr-El-Amthal__01-Chapter-08.html#3._الحكمة_الأزلي

لقد استعمل يعقوب ملطي تعبيرا مهما كي يثبت للمتلقي أن النص حديث عن وجود المسيح الأزلي، وهو قوله: "يؤكد الحكمة الإلهي أنه كان موجودًا" هذا تعبير مهم لأنه استعمل التذكير وليس التأنيث في كلامه. ومثل هذا كما مر استعمل في التعبير عن الكلمة التذكير؛ لاعتقادهم بأن المسيح إله، والله مذكر. إلا أن المفسر لن يفلح في هذا ويكفي القارئ لسفر الأمثال أن يتتبع النص من بداية الاصحاح الثامن سيجد الحديث عن الحكمة بالتأنيث وليس بصيغة المذكر؛ وذلك كالآتي:

- (الحِكمة تُنادي، وجهارًا تَرفَعُ صوتَها).
- (وفي النَّوافذِ ها هيَ تَصيحُ).
- (فالحِكمةُ خيرٌ مِنَ اللآلئ، وكُلُّ الجواهِرِ لا تُساويها).

هذه أمثلة فقط من الإصحاح الثامن[1] الذي يوجد ضمنه النص موضوع الدراسة، إن الحديث كان عن الحكمة بصيغة التأنيث وليس بصيغة التذكير وهو يبطل تعبير ملطي في تذكيره للحكمة، هذا من جهة أولى، ومن جهة ثانية فالمسيحيون يؤمنون بأن المسيح هو الخالق، والحكمة في سفر الأمثال مخلوقة وهذا ما تؤكده بعض الترجمات:

- الترجمة اليسوعية: (الرَّبُّ خَلَقَني أُولى طرقِه قَبلَ أعمالِه مُنذُ البَدْء).
- الترجمة الإنجليزية لـ: William B. Brown

- The LORD made me as the beginning of His way, the first of His works of old.

- الرب خلقني: The LORD made me.
- الترجمة الإنجليزية THE GOOD NEWS BIBLE:

- The LORD created me first of oll, the first of his works, long ago.

إذا، لا مجال لتفسير الحكمة بأنها هي المسيح. فالحكمة حسب هذه الترجمات مخلوقة والمسيح في اعتقاد المسيحيين هو الله الخالق لكل شيء[2]. وبناء عليه، يستحيل الجمع بين الأمرين فما دامت الحكمة مخلوقة، فليس لها صلة بالمسيح.

إذا، فالحكمة في النص خاصة بسليمان، ولا علاقة لها بالمسيح. يقول الأستاذ منقذ السقار: "وقول بعض النصارى إن سفر الأمثال كان يتحدث عن المسيح عليه السلام لا دليل عليه، فسفر الأمثال قد كتبه سليمان كما في مقدمته "أمثال سليمان بن داود" (الأمثال 1/1)، وقد تكرر في مواضع متفرقة منه استمرار سليمان الحكيم في

---

(1) ولمزيد من النصوص حول التعبير عن الحكمة بصيغة التأنيث، يكفي قراءة سفر الأمثال

(2) لا بد هنا من استحضار ما ذكرناه على قولهم بالمسيح الخالق، فقد سبق تفنيده بأدلة تؤكد أنه عليه السلام مخلوق، وعليه، فلا يقول قائل إذن من الممكن ربط الحكمة بالمسيح ما دام المسيح مخلوقا والحكمة مخلوقة. أقول إن الدراسات النقدية هي التي أثبتت أن المسيح مخلوق أما المسيحيون فيرفضون ذلك.

الحديث، وهو يقول: "يا ابني أصغ إلى حكمتي" (الأمثال 1/5)، وانظر (الأمثال 8/1، 1/3، 21/3، 1/7 وغيرها)، فالمتحدث في السفر هو سليمان عليه السلام والحكمة المتجسدة فيه"[1].

إن نص الأمثال لا تربطه صلة بالمسيح، وإنما هو خاص بسليمان، لذلك يضيف منقذ السقار بخصوص هذا الأمر قائلا: "وسليمان هو الموصوف بالحكمة في الكتاب المقدس، وأي حكمة؟ حكمة الله، فقد رأى معاصروه فيه حكمة الله "ولما سمع جميع إسرائيل بالحكم الذي حكم به الملك، خافوا الملك، لأنهم رأوا حكمة الله فيه" (الملوك (1) 28/3). ويمضي السفر ليبين لنا عِظَم حكمة الله التي حلت وتجسدت في سليمان الحكيم، فيقول: "وأعطى الله سليمان حكمة وفهماً كثيراً جداً ... وفاقت حكمة سليمان حكمة جميع بني المشرق وكل حكمة مصر، وكان أحكم من جميع الناس ... وكان صيته في جميع الأمم حواليه ... وكانوا يأتون من جميع الشعوب ليسمعوا حكمة سليمان، من جميع ملوك الأرض الذين سمعوا بحكمته" (الملوك (1) 29/4-34)"[2].

أخلص بناء على ما سبق إلى أن الحديث في سفر الأمثال كان حديثا عن حكمة سليمان عليه السلام التي أعطاه الله إياها، وعليه فإن تفسير النص لصالح أزلية المسيح مرفوض ومردود بشهادة النصوص، رغم محالة المسيحيين تغييرها وتفسيرها تفسيرا تعسفيا.

(1) "الله واحد أم ثلاثة"، منقذ السقار، دار الإسلام للنشر والتوزيع، ط1، 2007، ص: 69

(2) "الله واحد أم ثلاثة"، السقار، ص: 96-70